

مهما استمرَّ الألم.. سيأتي الفرح حقًاً يوماً ما

بقلم: فاطمة

مقاومة آثار سنوات من الحزن والقهر، هو ما جعلني أقرر تسمية ابنتي الصغرى

"فرح".. فأنا رغم جميع الآلام، ما زلت أفضّل التفاؤل، علَّ الحياة تقدم لي أخيراً ما حلمتُ به وأردُته، علَّها تمنحني ما أستحق، وما ناضلت من أجله.. عسى أن تتيمَّن الحياة باسم ابنتى، وتجلب لى الفرح حقاً.. يوماً ما.

في منزل جميل بمدينة الرقة، وُلدتُ لأب وأم يفضًلان الذكور على الإناث في كل شيء. عشتُ ثمانية وعشرين عاماً بين عائلة تمتلك فانوساً سحرياً مُسخَّراً للذكور، أما الفتاة فهي بالنسبة لهم مخلوق مجهول، مُهمَّش، ضعيف، ولا يجلب لهم سوى الهموم.

كنا ست بنات وثلاثة أولاد.. حُرمنا أنا وإخوتي الفتيات من إكمال الدراسة، ومُنعنا من الخروج من المنزل.. عشنا عزلة عن المجتمع، وصار بيتنا الجميل سجناً نتحيَّن الفرصة الأولى للهروب منه. طرائق التمييز التي عامَلَنا به والداي انتقلت بالطبع لإخوتي الذكور، الذين لم يتوانوا عن تنفيذها بحذافيرها، بل وأكثر. عاملونا كخادمات في جميع الأوقات، ولم نتلقً منهم حتى كلمة شكر.

لكنني لم أكره يوماً كوني أنثى، بل أحببتُ نفسي.. وآمنتُ بها.

كلما كانت قسوتهم تؤذيني، كانت قوتي تزداد.. قابلتُ سلوكهم الظالم بالنقاش والمواجهة.. بالمطالبة بحقوقي. راكمتُ كلَّ ما أوتيت من قوة وشجاعة داخل قلبي، رغم محاولاتهم بإقناعي بأنني مخلوق ضعيف لمجرد أنني خُلقت أنثى. وصار لدي هدف في هذه الحياة، هو أن أثبت لهم بأن الفتيات أيضاً قويات، ذكيات، ويستطعنَ أن يعشن ويصادقن ويحببن، دون أن يرتكبن الأخطاء التي يوهمنا المجتمع بأنها مصر حتمي ينتظرنا.

تحمَّلنا -أنا وأختي الصغيرة- ظروفنا القاسية في المنزل، كنَّا مثل يَدٍ واحدة، نُشجِّع بعضنا البعض، دون أن نقتنع بما يُردِّده أبواي وإخوتي على مسامعنا دامًا؛ "أنتِ فتاة وهو شاب.. عليك أن تبقى في المنزل حتى يأتي من يتزوجك!".

كنت فتاة تتشوَّق لاكتشاف الحياة، وفي الوقت ذاته أتألم لامتلاكي الكثير من الملابس في خزانتي دون أن أستطيع ارتداءها لأنني ممنوعة من الخروج، إلا في المرات القليلة التي زرنا فيها أقارب لنا، لكن جميع تصرفاتنا كانت توضع في الميزان، وعيون أهلي لم تكن لتُرفَع عنًا طوال الزيارة، كنًا محاصرات دامًاً.

تجرَّأنا ورفضنا.. وطالبنا بالمساواة، ولم نخشَ من التعنيف أو الضرب الذي كنا نتعرض له عندما نُجابههم. إغًا، وعلى الرغم من رحلة اعتراضاتنا الطويلة على العيب والممنوع والحرام الذي كان يُفرض علينا -ولا يُفرض بالطبع على الذكور - إلا أن ثورتنا الصغيرة في المنزل بقيت حبراً على ورق، ولم نستطع أن نغير شيئاً من واقعنا.

وعندما أصبح إكمال الدراسة حلماً بعيد المنال، صرت أحلم بأن أشعر بالمحبة، أن أحبَّ رجلاً متعلماً مثقفاً وأتزوجه. والدي الذي كان أقل تسلُّطاً من إخوتي الذكور، لطالما قدَّم لي النصائح، وربما وثق بخياراتي. لذا، عندما أحببت شخصاً، وجاء لخطبتي ثم تزوَّجنا في العام ٢٠٠٥، شعرت أننى كنت بالفعل عند حسن ظنِّ والدي بي.

* * *

بعد بدء الثورة في سوريا، وعندما دخل الجيش الحر إلى الرقة، كنت قد أنجبتُ آنذاك ثلاثة أولاد. بدأ قصف النظام السوري للمنازل يشتد، نزحنا إلى عين عيسى، وهي بلدة في شمال الرقة، بقينا أسبوعاً هناك، ثم عدنا إلى المدينة واستأجرنا منزلاً آخر. لكن القصف اشتد أكثر، ووصل إلى المنطقة المحيطة بمنزلنا، فقررنا الخروج إلى تركيا، حيث كان كلُّ شيء صعباً، حتى تأمين لقمة الخبز. بقينا في تركيا، وعدتُ أنا إلى الرقة في زيارات متفرقة، لأرى أهلى وأطمئنً عليهم.

في أول زياراتي إلى الرقة بعد سيطرة تنظيم داعش عليها، مررتُ بدوار النعيم، رأيت رؤوساً مقطوعة معلَّقة على الحديد المنصوب عند الدوار.. والدماء منتشرة في كل مكان.. أُجبرنا على حضور مراسم حرق ورجم الناس، مناظر مرعبة وجرائم لم يَفِها أحدٌ وصَفَها لى من قبل حقَّها.

طائرات التحالف في السماء، وداعش في الأرض.. كلاهما يقتلان المدنيِّين.

أجزاء من وعيي وعقلي كانت تذهب مع كل صاروخ.

داعش تستولي على المنازل، أجزاء من ذاكرتي تُمحى مع كل ثمين وغالٍ على قلبي يُسرق منى.

منيت لو أنهم أبقوا على الصور فقط، ولم يخطفوا تاريخاً كاملاً من ذاكرتي.

قال لي عناصر ملثمون من داعش إنهم "كبّروا على منزلي وصار من أملاك الدولة"، وعندما اعترضتُ على الظلم الذي أتعرض له، هددوني بالجلد.

كل شيء صار صعباً ومعقَّداً في الرقة، توجّب علينا أن نفكِّر بكل كلمة قبل أن نتفوَّه بها، وأن نحسب لكلِّ تصرُّف أو حركة.. فالقوي هناك يأكل الضعيف، ولا أحد عق ظلم آخر.

خشينا من أن نتحوَّل نحن إلى وحوش وظلّام مثلهم.

في تلك الفترة كان والدي قد توفي، وأجبرتني أوضاعنا الصعبة في تركيا على طلب ميراثي من إخوتي، لكنهم رفضوا. وداعش منعتني من العودة إلى زوجي وأولادي الذين كانوا ينتظرونني في تركيا، بحجة أنني "ذاهبة إلى بلاد الفسق والكفر"، قالوا لي إن عقوبة الفرار من أراضي "الدولة الإسلامية" قد تصل إلى قطع الرأس!. لم يعطني إخوتي حقوقي، ولا "الدولة الإسلامية".

هربتُ من الرقة ليلاً، قضيت ثلاثة أيام في طريق العودة.

على الحدود السورية التركية، غنا في البرد القارس.. المرض والخوف وأصوات إطلاق الرصاص تحيط بنا.. عيون السوريين الهاربين من الحرب ترتجي رحمة الجندرما.. دخلت إلى تركيا أخيراً، حيث لا طائرات فوق رؤوسنا، ولا رؤوس مقطوعة ومعلقة، ولا ذل وحزن وخوف في عيون المارين.

في العام ٢٠١٥، أمضيت شهوراً أعيش حالة مرعبة من القلق على عائلتي التي انقطعت أخبارها عنى، وعندما أتاني خبر عنهم، كان صدمة لم أستطع الخروج منها حتى اليوم.. ماتوا بقصف لطائرة تابعة للتحالف، مع خمسمائة شخص في يوم واحد! ماتت عائلتي هناك بأكملها، ما عدا أختي، التي أصيبت بحروق وتشوهت أجزاء من جسدها وصارت كما الميتة بسبب وفاة زوجها وأولادها في القصف. ماتت والدتي وأخوتي وأزواجهم وزوجاتهم و أعمامي وأولادهم وأصدقاء وجيران في الحي.. قيل حينها إن عناصر من داعش هربوا للاختباء بعد أن جمعوا الناس في مبنى مؤلف من خمسة طوابق هُدم على آخره جراء القصف، وأن استهداف المبنى كان بسبب شريحة تَتَبُع كانت موجودة فيه.

لم أصدق خبر وفاتهم، طالبت بأدلة، فوصلتني صور جثثهم محروقة بلحم ذائب على العظم. أما أختي التي أعتبرها كابنتي، فتعيش اليوم وحيدة، فقيرة، وذليلة، دون أن أستطيع أن أقدم لها أي نوع من المساعدة.

بدأت أتردَّد بانتظام على الأطباء والمشافي، أُصبت بأمراض عصبيَّة، ومرض ارتفاع الضغط، وعانيت من الصداع الدائم.. جفَّت عيوني من البكاء المتواصل، عزلت نفسي عن الناس، صرت تعيسة، حاولت الانتحار ثلاث مرات، وارتديت اللون الأسود. واجهت لحظات حزن لا أستطيع وصفها، الألم والنزيف في داخلي، إلى جانب الظروف القاسية التي أعيشها في تركيا، يمنعاني من مسامحة أحد تسبب ماساة كهذه.

في تركيا نهنا أنا وزوجي وأولادي على إسفنجات رقيقة لا تسند ظهورنا، أو تقي عظامنا من قسوة الأرض.. في تلك اللحظات أتذكّر منزلي في الرقة والبطانيات والأسرّة التى كانت لدينا.

أطفالي لا يخرجون للَّعب في الشارع، بل مُحتجزون في المنزل، مثلما احتُجزت أنا في صغري، لكن لأسباب أخرى.. في تركيا يتنمَّر الأطفال على أولادي لأنهم سوريون، أطفالي محرومون من اللعب داخل المنزل تجننباً لإصدار ضجيج قد يزعج الجيران.. وأنا أيضاً مضطرَّة لأن أصمت وأتجاهل عبارات مؤذية يطلقها أطفال أتراك لدى مرورى في الحارة، لمجرد أننى سورية.

لكن المشهد ليس قاتماً هكذا طوال الوقت، هناك أيضاً من يساعدني، إن كان من خلال خدمات دعم نفسي، أو جلسات علاجية تلقيتها في مركز "العائلة"، في هذا المركز وجدت الدعم الذي جعل من حياتي أفضل.. وجدت العائلة التي خسرتها، فلم أشعر أنني في مكان غريب عني، مركز العائلة، أو كما أحب أن أسميه "منزل أهلي" يمنحنى الحنان والمحبة والاحترام.

صحيح أن هاتفي سُرق، وخسرت صور جثث عائلتي.. لكن بالرغم من صعوبة الأمر، أظن أن ذلك ربما قد يساعدني على نسيان صورهم المشوهة التي لازمت أحلامي، ربما أستعيد يوماً ذكرى عن لحظة سعيدة قضيتها معهم بملامح وجوههم الكاملة!.

ربما سأتجاوز تلك المحن، ربما لن تفقدني توالي الصدمات عقلي، ولن تضعفني.. سوف أطوي ذاك الماضي يوماً ما، وأنال الراحة والطمأنينة والفرح الذي سعيت إليه دوماً، وأمنحه لأختي التي تبقت لي في هذه الحياة، ولأطفالي.